

نبت العراق وعلاقتهم بالفاتح العربي

(بين قلق الأصول والصورة النمطية السالبة)

**Nabat Iraqis and their relationship with the
Arab Fateh**

(Between asset anxiety and negative stereotype)

م. قيس فالح ياسين

Lect.Qais Faleh Yassin

كلية الإمام الكاظم (ع) للعلوم الإسلامية الجامعة

**Imam Al-Kazim (Peace be upon him) College of Islamic Sciences,
University**

E-mail: gaisfalih51@gmail.com

الكلمات المفتاحية: نبت العراق، الفاتح العربي، صورة نمطية.

Keywords: Nabat al-Iraq, Arab conqueror, stereotype.



المخلص

شكّلت علاقة نبط العراق وعلاقتهم بالفاتح العربي علاقة شائكة وقلقة تخللتها الكثير من العواقب والإشكاليات على عدة أصعدة، ويهدف هذا البحث دراسة وبيان أوجه بعض هذه الإشكاليات، وقد قسم البحث إلى مبحثين وخاتمة، المبحث الأول: البحث عن الجذور في أصل نبط العراق في المدونات التاريخية العربية - الإسلامية، والمبحث الثاني: نبط العراق والصورة النمطية السالبة، حيث يبين الصورة التي حفلت بها المدونات التاريخية عن النبط ما يشوبها من صورة سالبة تبخيسية سالبة عنهم.

Abstract

The relation of Nabat Iraqi and their relationship with the Arabs formed a thorny and anxious relationship that pervaded it too many consequences. Problems on many levels, this research aims to study and state some of the aspects of these problems, the research has been divided into two chapters and a conclusion, First chapter: searching for the roots in the origins of Nabat Iraqis in the Arab historical records, the second topic or chapter: Iraq Nabat, the Negative stereotype picture. It shows the picture in which the historical belong about the Nabat and what it presents as a negative image about them.

المبحث الأول: البحث عن الجذور في أصل نبط العراق في المدونات التاريخية العربية الإسلامية

غالباً ما تكون العودة إلى الجذور من قبل الحضارات والأقوام والجماعات والأقليات المغلوبة في التاريخ عاملاً مهماً ويشكل هاجساً قوياً لديها، في البحث عن جذورها وأصالتها وكيفية إبرازها أو استعادتها جزءاً أو كلاً، وقد مرّ العراق وحضاراته المتعاقبة بعدت أدوار حضارية، ونشأت عليه حضارات وافدة وحضارات مقيمة، في حركة جدلية تبادلية كبيرة، ورغم هذا يرى بعض الباحثين أن بلاد الرافدين والأقوام التي انشأت حضاراتها على جغرافيتها وعلى أرضية كانت تشترك في سمات يجعلها مغايرة لما حولها نتيجة طبيعة الأرض والجغرافية والاجتماع وعوامل متضافرة أخرى لهذا يقال إن لبلاد الرافدين هوية شديدة القوة، فهي من الهويات القوية التي ظهرت في التاريخ^(١).

وتشير أغلب الدراسات أن أول السلالات والممالك ظهرت في بلاد الرافدين تعود إلى ٣٥٠٠ إلى حوالي ٢٥٠٠ قبل الميلاد، وتشكل هذه المرحلة الحقبة السومرية التي انتقلت من جنوب البلاد لتضم مناطق شمالية في العراق وسوريا المعاصرين، وكانت المرحلة السومرية على الأرجح تمثل حضارة سياسية متكاملة قام التنظيم فيها على أساس تحالف هش بين مدن - دولة، تلت ذلك مملكة متقدمة التوحيد والاندماج تحت سيطرة الأكديين لفترة قصيرة، تلت ذلك مرحلة تفتت شبه متواصلة قطعها مراحل كان العراق فيه شبه موحد لا سيما أيام حمورابي ١٧٩٧ - ١٧٥٠ ق.م^(٢).

هنا شكل هذا الازدهار والانحطاط في أدوار حضارية متباعدة ومتقاربة، عامل ضعف هذه الهوية وعدم ترسخها بصورة دائمة عبر الادوار الحضارية المختلفة، إن بلاد الرافدين خضعت إلى حضارات متعاقبة شكلت ضغط خارجي وعدم استقرار داخلي ونتيجة هذان العاملين (فبلاد الرافدين المركز الممتاز ومقر التحضر للمدن والممالك وكانت تعارض بشدة عالم الحواشي الصحراوية، وعالم المختلطين بصورة مبهمة، وكانت تخضع باستمرار لضغط ذلك العالم)^(٣).

وعبر ادوار التاريخ تتابعت موجات من الغزو العسكري ومن الهجرات الديمغرافية الواسعة، إلى ان نشأت دولة الاشوريين (عاصمتها نينوى - الموصل)، لفترة وسقطت تحت ضربات شعوب مهاجرة من بلاد فارس. و أعيدت إلى بابل زعامتها لفترة، إلى أن عاد العراق عرضة لفتوحات الفرس، فالمقدونيين والبيزنطيين وغيرهم. ثم جاء الفتح الاسلامي، وأبرز معاركه الفاصلة موقعة القادسية بين العرب المسلمين وجيوش فارس في بلاد الرافدين، غير أن معركة صفين التي تلتها أعطت العراق شخصية سياسية متميزة. من خلال تمركز الخوارج والشيعية فيه خلال التمرد المستمر، ذي الطبيعة الاجتماعية أحياناً للموالي، غير أن العراق عاد فأصبح بعد عام ١٣٢ هـ

وإعلان أبي العباس (ت: ١٣٦ هـ) نفسه خليفة، وانتقال عاصمة الدولة الإسلامية إلى بغداد وبنائها في ١٤٥ هـ^(٤).

إن الجذور العرقية والحضارية والاجتماعية لمكونات نبط العراق تستمد ذخيرتها من تلك الحضارات المتعاقبة ومن الغزوات والهجرات، التي توالى عبر مراحل تاريخية طويلة على أرضهم وقد أطلقت عليهم تسميات مختلفة منها: الكلدانيون، الكسديون، النبطيون، الآراميون، السريان، الآراميون (نسبة إلى ارم) وغيرها من التسميات، وفي أحيان عديدة تأتي التسميات مزدوجة مثل النبط الآراميين، أو النبط السريان، والنبط الكسديون، أو مفردة ورغم أن التسمية: ((الانباط، نبط، نبيط)) عرفت لها علو شأن مع مملكة الانباط في عاصمتها ((البيثرا)) ومع ((الجرامقة)) نبط الشام ونبط العراق.

إلا أن أغلب المصادر العربية الإسلامية، تشير إلى أن سكان العراق من النبط كانوا ينتمون إلى حضارات عراقية قديمة بحسب موارد تاريخية مختلفة موعلة في القدم، فالمؤرخ اليعقوبي (ت ٢٧٩ هـ) يقول: (وكان أول الملوك بعد الطوفان بارض بابل ملوك السريانيين. فأول من ملك منهم وعقد التاج على رأسه: شوشان، وكان ملكه ست عشر سنة)^(٥). ويذكر كذلك أن أول ملوك بابل بعد السريانيين نمرود الجبار فملك تسعاً وستين سنة)^(٦). ولكن المصادر الحديثة لبلاد حضارات الرافدين، تشكك في هذه الموارد التاريخية وتقول أنها لا تنطبق على أسماء هؤلاء الملوك ومع ما جاء حديثاً^(٧).

ويذكر المسعودي (ت: ٣٤٦ هـ) أن أول الملوك ملوك السريانيين بعد الطوفان وقد تتوزع فيهم وفي النبط، فمن الناس من رأى أن السريانيين هم النبط، ومنهم من رأى أنهم اخوة لودماش بن نبيط ومنهم من رأى غير ذلك)^(٨). ويورد كذلك: (وكان أول من ملك منهم رجل يقال له "شوشان" وكان أول من وضع التاج على رأسه في تاريخ السريانيين والنبط، وانقادت له ملوك الارض، وكان ملكه ست عشر سنة باغياً في الارض مفسداً للبلاد سفاكاً للدماء)^(٩).

أما حول انساب اسلاف النبط التي يوردها المسعودي (ت: ٣٤٦ هـ) تحت "اسم النبيط" فيقول: (فولد عوص عاد بن عوص، وولد عابر ثمود بن عابر، وولد ماش بن ارم نبيط بن ماش، فسائر النبط وملوكها ترجع في أنسابها إلى نبيط بن ماش)^(١٠). والنتيجة التي يوردها المسعودي أن النبط لهم أصول متواشجة مع أقوام وأماكن من الجزيرة العربية والبحرين وحضر موت واليمامة والحجاز، أما نبيط بن ماش بن ارم بن سام بن نوح فحلوا في بابل وغلبوا على العراق وهم النبط، ومنهم ملوك بابل)^(١١).

أما المؤرخ مسكويه (ت: ٤٢١ هـ) فيطلق على سكان العراق من السواد بأرض بابل وما يليها إلى ناحية الموصل الارمانيين ويقول: (وهم ملوك الطوائف وهم فيما بين نضر - قرية من سواد العراق إلى الأبله وأطراف البادية. فلم تدن لهم فدفعوهم عن بلادهم ويرجع سبب تسميتهم الارمانيين لأنه كان يقال لعاد: ((أرم)) فلما هلكت قيل لثمود: ((أرم)) ثم سموا الارمانيين وهم بقايا إرم، وهم نبط السواد ويقال لدمشق أرم) (١٢).

وقد توالى الغزوات وحلّ الغزاة في أرض العراق وتغيرت أحوال النبط وضعت شوكتهم. فيقول ابن العبري (ت: ١٢٨٦ هـ): (إن الملك الفارسي المسمى داريوش لمادي، واليونان يسمونه نابونيدس ملك سنة واحدة وقيل تسع سنين، وبه بطلت مملكة النبط الكلدانيين منتقلة إلى الفرس المجوس) (١٣). والنقطة المهمة في ما يورده ابن العبري هنا، إن الفرس هم من أسقطوا النبط واستضعفهم على يد ملكهم داريوس.

وتورد اغلب المصادر العربية الاسلامية المعلومات نفسها ولكن في فروق قليلة ومتباينة في تفاصيل أقل، وكان لها روايات متواترة عن اصل مفقود. وكذلك هناك تعاريف توردها معاجم اللغة حين ترد لفظة "نبط" فيقال عنهم من نزل أو ينزلون في بطائح العراق أو سواد العراق بين الكوفة والبصرة، وأنهم سموا نبطاً لاستنباطهم ما يخرج من الأرض، أي زرعها ويقال لغويّاً رجل نباطي بضم النون ونباطي بفتحها وغيره (١٤).

إن أغلب سكان العراق من غير الفرس هم عراقيون نبط، ونشاطهم المميز لهم هو عملهم في الزراعة وأطلق عليهم أغلب المؤرخين (النبط) ويعزون السبب إلى أنهم الذين استنبطوا الأرض وعمروها وحفروا الآبار والأنهار وبنوا السدود وأقاموا النواظم من أجل عمارة الأرض بالاقتصاد الزراعي، وهم يشكلون مجمل وعامة سكان الكور والارياف والقرى الواسعة في إقليم بابل وما حوله، ويصل عند بعض المؤرخين عددهم بعدة ملايين وهم من شعوب الحضارات السومرية والبابلية والأكدية والعامورية والكلدانية والكيشية والساسانية من الفرس والروم، إلا أن البعض يميزهم عن باقي الحضارات مثل الفرس والروم والمقدونيين والسلوقيين بين واد ومقيم أصلاً منذ اسلافه.

هناك رأي معاصر للدكتور جواد علي، حيث يرجع أصولهم للجزيرة العربية حيث يقول: إن الانباط عرب وأن تبرا العرب منهم وسبب ذلك كما يقول، لأنهم قد تتقّفوا بثقافة آرامية وكتبوا بكتابتهم وتأثروا بلغتهم حتى غلبت عليهم الآرامية، وهم فضلاً عن ذلك خالفوا سواد العرب باشتغالهم بالزراعة وباحترافهم الحرف اليدوية .. وقد درج العرب على اطلاق اسم نبطي على كل رجل يعمل بالأرض ويستنبط الماء ويتكلم برطانة أعجمية ممزوجة بكلمات عربية (١٥).



وبعض المؤرخين المعاصرين من يناصر هذا القول والرأي ويذهب إلى أنهم عرب ويختلفون في أصولهم عن الفرس والروم فقد (كان عامة الفلاحين في الشام والعراق من أصول ترجع إلى الجزيرة العربية، إما الفرس والروم الذين كانوا فئات حاكمية (وحاميات) في المدن الرئيسية، وجعلهم تركوا أثناء الفتوح) ^(١٦).

ويقال ان لفظة (نبط) ذات دلالة على الاصول البشرية، ثم صارت ترتبط بالفلاحة والرّي ^(١٧). ويورد هشام جعيط رأياً نقلاً عن المستشرق الالماني نولدكه من أن قد فحص الاسماء النبطية وأكد على القول أن النبط أغلبهم عرب خلص رغم أنهم يتكلمون بسهولة الآرامية ^(١٨). فلفظة النبط تشير إلى الفلاحين الذين يتكلمون الآرامية من العراق وخصوصاً في منطقة البطيحة، وقد أوضح ابن الكلبي أن العرب يطلقون لفظة النبط على سكان العراق الذين لم يكونوا رعاة ولا جنوداً ^(١٩).

ويدعم عبد العزيز الدوري رأي المؤرخ المسعودي (ت: ٣٤٦ هـ) السابق إذ يقول: (ويسمي المسعودي فلاحى العراق (النبط) و (السريان) ويصيب في ذلك حين يعتبر النبط سكان العراق القدماء، وأن الفرس أضعفهم. ثم يذكر أن النبط دخلوا في جملة الفرس "وانتسبوا إليهم" وأنه لما حصلت الفتوحات الاسلامية ذهب النبط إلى الانتساب إلى الفرس "وأنفوا من النبطية لزوال العز الذي كان فيهم وانتمى جلمهم إلى ملوك الفرس" ثم يقتبس قول الشاعر يتساءل :

"وأهل القرى كلهم يدعون بكسرى قباذ فأين النبط"

ليظهر بذلك أن عامة القرويين من النبط، ويتحدث عن قرى نبطية قرب مدينة سامراء ^(٢٠). وهناك من يعقد صلات مشتركة كما أوردها نولدكه سابقاً - حول ان الاسماء النبطية الآرامية تشبه بصورة دالة الاسماء العربية، ومن الصلات الاخرى بين النبط والعرب التي تبدو واضحة من خلال اللغة العربية والآرامية حيث (ان العربية انتشرت بين النبط بالتدرج للقرابة بين لغتهم وبين العربية وقد ترد اشارات عابرة إلى أن عربيتهم لا تميز إلا بمخارج الحروف أحياناً. وقد يشار إلى السمة الريفية للتمييز، ويبدو ان جمهور الموالي في العراق كانوا من النبط) ^(٢١). ويقال أن لفظة النبط أطلقت على من لا يتكلم لهجة أهل الحجاز أوهم عرب تنبوا لهجة آرامية صارت تعرف بالنبطية وكما في دراسة حديثة ^(٢٢).

وحدث ما هو طبيعي في سنان الحضارات، فخلال الفتح العربي نلاحظ أن اللغة العربية أخذ نجمها يصعد لوجود تلك الصلات المشتركة (حيث كان أعيان الكوفة يملكون ضياعهم وعزبهم، وكانت اللغة الآرامية "النبطية" تتراجع ببطء أمام العربية في قرى الفلاحين) ^(٢٣). ويعزي البعض أن لتلك المشتركات جعلت من عملية الفتح العربي الاسلامي يسيره في تلك المناطق

(ولعل هذا يوضح ظاهرة مهمة هي ان التعريب لم ينجح كلياً إلا في بلاد يتكلم جلّ أهلها أو مجموعة كبيرة منهم على الأقل، لغة تشبه العربية في نحوها ولحد ما في مفرداتها) ^(٢٤).

وقد تعددت الآراء وتشعبت حول هذا الموضوع فهناك من يرى أن فئات عربية خرجت من أسر عالم البداوة، والترحل والرعي واستقرت أخيراً في الربوع الخصبة وفقدوا صفاتهم البدوية ظاهرياً مثل الثموديين والنبطيين لا عرباً بل بأسماء محددة نوعية، وكانت لهم مدن تسمى مدن الثموديين واللحيانيين قرب العلا والحجر ودول النبطيين قرب الحجر بصري وصلخد والبتراء بالخصوص ^(٢٥). ويدعم هذا الرأي هو وجود مملكة الانباط، وكذلك وجود تسميات نبطية بين السكان والاقوام التي تعيش في تلك المناطق، والمتتبع لعاداتهم وسلوكهم واهتماماتهم بالزراعة والفلاحة يتعزز لديه هذا الرأي، وكذلك لوجود من عرفت بأسماء نبطية أو اطلق عليها تسمية النبط مثل مدن النبطية في لبنان المعاصر.

وكذلك من الشواهد على انتشار لغة النبط ونمط معيشتهم وثقافتهم ما وجد في الشام (بصري) رقيم يتألف من خمسة اسطر بالكتابة النبطية اطلق عليها (نقش النمارة) على قبر ملك العرب أمراً القيس ويدعى ملك العرب كلها ويذكر أنه أخضع قبائل شمالية وجنوبية هي "اسدين، ونزار، ومذبح، ومعد" وان سلطته امتدت حتى نجران، وهذا يعني أن النقش يقصد بالعرب قبائل مستقرة جنب القبائل البدوية ^(٢٦).

ويورد المشتشرق الفرنسي شارل بلات: (كان الآراميون يشكلون قسماً كبيراً من أهل السواد الذين يطلق عليهم كتاب العرب دون تمييز اسم النبطيين. إن هؤلاء القوم الذين لزموا وضع المتفرج تجاه الصراع القائم بين الفرس أسيادهم القدماء، وبين العرب الفاتحين، ظلوا منعزلين عن العرب يؤلفون طبقة الزراع الدنيا) ^(٢٧).

إذاً، أصل النبط سيظل مدار نقاشات ووجهات نظر مختلفة في كل العصور وهوية قلقة سيما في العراق حيث دائماً ما يصدر كتاب يعيد التساؤل حول الهوية أو الذات الجريحة ^(٢٨). أما عن التاريخ المستباح ^(٢٩) أو عن الالسنّة العراقية ^(٣٠) وغيرها يعاد من خلاله الخوض في هذا الموضوع الذي يأتي قلقه من عدم الاستقرار جيوسياسي والمجتمعي، وترصيد سيادة الهوية الوطنية التي تعصف بها الأحداث كل حقبة زمنية كما يحدث الآن. وكأن شقاء البحث عن الجذور في العراق شقاءً أبدياً، وليس تاريخياً وفق السياق الذي مضى واستقر في الذاكرة التاريخية.

المبحث الثاني: نبط العراق: الصورة النمطية السالبة

حينما أطلت خيول الفاتحين لأرض العراق هالهم منظر الخضرة الداكنة التي تميل إلى السواد، وحينما شخصت أبصارهم وأشرفت عليه، ونظرت إلى مثل الليل من النخل والشجر والزرع والمياه قالت: ما هذا السواد؟ فسمي سواداً لذلك، والعرب تقول سواد الأرض وبياضها، فالسواد العامر والبياض الغامر^(٣١).

ومن الثابت تاريخياً أنه منذ انهيار امبراطورية الفرس، إبان فتح العراق في معركة القادسية أصبح العراق أرضاً مفتوحة لجيوش الفتح الاسلامي، وبدأت معه حقبة جديدة في تاريخ العراق سوف تطبعه بطابع الاسلام والفاتحين العرب وتحدث على أرضه أهم المراحل خطورة وحرجة وتطور وازدهار وبناء وعلو شأن.

ويذكر الطبري (ت: ٣١٠ هـ) في حديثه عن أحوال أهل السواد قبل وبعد فتح السواد، فقد جرى نقاش وجدل وحوار حول غنائمه من أرض وأموال ظاهرة للعيان أو باطنة ومن بشر وزرع وحيوان وغيره، وكان لبّ الجدل حول قسمة غنائم سواد العراق الغنية عن سواها؛ لأنها كانت عامرة بالأهل والزروع والأموال فكان الرأي أن أخليت إليهم مزارعهم وأطلقوا عليها أهلها حتى لا تبور فكان لهم الذمة وعليهم الجزية فترجعوا وصاروا ذمة وتم لهم هذا العهد والميثاق^(٣٢).

وتورد أغلب الموارد التاريخية و (تتواتر الروايات التاريخية وتصبح أكثر وضوحاً عندما تتناول خراج سواد العراق، ولعل الفضل في ذلك يعود إلى الفقيه أبي يوسف الانصاري الذي وضع كتاب (الخراج) في وقت مبكر وضمنه روايات واضحة ودقيقة وموثقة عن حكم اراضي الخراج وانواعها وعن المبالغ التي جبيت من الأراضي الخراجية)^(٣٣).

ولكن لم تبق الصورة والاحداث التاريخية في اتجاه واحد، بل تغيرت من عهد خليفة إلى آخر، ومن عهد إلى عهد آخر، وهناك تبيان بين الازدهار والانحطاط في الازوال الاجتماعية والاقتصادية والمعيشية لأحوال القوم الذين أطلقوا عليهم العرب - المسلمين الموالي وكان سكان سواد العرب من جملتهم والنبط هم سكان أغلب هذه الحواضر الزراعية المهمة في الحياة الاقتصادية والتي تعتمد الانتاج الزراعي والفلاحة في كل شيء، وتعتمدها الدولة كأحد ركائز الملك والخلافة وقوتها، ولكن في بداية عهد الفتح حدثت هجرات بين المدن داخل العراق بين البصرة وسواد العراق وكل تلك الهجرات كانت من قبل الفلاحين الذين أغلبهم من نبط العراق العاملين في الزراعة، وكانت لهذه الهجرات عوامل إيجابية وسلبية، فعاملها الايجابي تمثل في أنه بدء في تنشيط بعض المدن الحديثة والأمطار المفتوحة في الاهتمام بالزراعة، حيث أرخوا العرب - المسلمين أيديهم وسطوتهم على الفلاحين وخفضوا عنهم الضرائب وأتاحوا لهم الحرية وحاولوا إقرار الاحوال في العراق بأن أعادوا الفلاحين إلى أراضيهم، لأن من الصعب بمكان على العرب

- المسلمين وهم حديثوا الخبرة بآدارة البلاد الزراعية أن يهيمنوا على شؤون الادارة الزراعية مما أتاح الفرصة لبعض الفلاحين الاستقرار في أراضيهم^(٣٤).

أما الجانب السلبي فتمثل في هجرة الفلاحين نحو الامصار المفتوحة، نتيجة ظلم بعض الولاة الحديثي العهد بإدارة الشؤون (شؤون الرعية) والادارة بصورة عامة^(٣٥). فقد اشارت بعض المصادر إلى الظلم الذي وقع على الفلاحين في سواد العراق الذي جعلهم من النبط (ما اطلق عليهم النبط) وسوف ننقل بعض الصور من كل عهد، ففي عهد الحجاج (ت: ٩٥ هـ) وكان يمثل أحد أركان الدولة الاموية، يمثل صورة قائمة لما فعله في أهل العراق من نبط السواد كما تحدثت أغلب المصادر التاريخية عن خطبته الشهيرة عند دخوله واعتلائه المنبر أول مرة على العراق، فقد روي أنه لما نزل واسط نفى النبط وكتب إلى عامله بالبصرة وهو (الحكم بن ايوب) يقول: "أتاك كتابي فأنف من قبلك من النبط فإنهم مفسدة للدين والدنيا" فكتب إليه (الحكم بن ايوب): "قد نفيت النبط إلا من قرأ منهم القرآن وتفقّه في الدين" فكتب إليه الحجاج: "إذا قرأت كتابي فأدع من قبلك من الاطباء وقم بين أيديهم يقفوا عروك فإن وجدوا فيك عرقاً نبطياً فاقطعه والسلام"^(٣٦).

ويعزي السبب في ذلك أن الموالي من النبط ولا سيما في سواد العراق ونتيجة الظلم والنظرة الاحتقارية لهم كانوا يصطفون مع الثورات ضد ولاة الخلافة و أحد هذه الاحداث هي ثورة ابن الاشعث وعبد الله بن الجارود ولقي ما لقي من قراء العراق، وكان أكثر من قاتله وخلعه وخرج عليه الفقهاء والمقاتلة من الموالي. فقد نكل بهم وفرقهم على قراهم وقال لهم: انتم علوج وعجم وقراكم أولى بكم وفرقهم وفض جمعهم كيف أحب وصيرهم كيف شاء ونقش على يد كل رجل منهم اسم البلدة التي وجهه إليها^(٣٧).

ورغم براعة نبط العراق في الاشراف على المشاريع المهمة لا سيما في التخطيط الزراعي، إذ أشرفوا خبراءهم على جلّ المشاريع الإروائية واصلاح الاراضي وتجفيف المستنقعات والتخطيط لشبكات الريّ والارواء وانشاء السدود، ففي عهد الحجاج في العراق وزمن الخليفة هشام بن عبد الملك (ت: ١٢٤ هـ) حيث كان يشرف خبير من النبط على الاعمال هو حسان النبطي^(٣٨). وكان هذا الاخصائي له أعمال جلييلة في هذا الشأن.

ويذكر الجهشاري (ت: ٣٣١ هـ) وكان في ديوان العراق مع محمد بن المنتشر ابن اخي مسروق ابن الاجدع من كتابه رجل يقال له حسان النبطي فكتب هشام يأمر أن لا يستعان بذي فليل لحسان في ذلك فأسلم على يدي محمد بن المنتشر ثم كتب لعبد بن عمرو الجرشي على خرسان، ثم عاد إلى العراق بعد صرف سعيد^(٣٩).



ومن الروايات الطريفة التي يذكرها الجاحظ (ت: ٢٥٥ هـ) عن علاقة الحجاج مع نبط العراق ومن شدة الحجاج على النبط ومقته لهم وأذيته عليهم وقسوته وبطشه، تروى الحكايات في هذا الشأن حتى بعد موته، فيورد الجاحظ الحكاية التالية: (ورأى رجل من النبط (النبط) الحجاج بعد موته في منامه فقال: يا حجاج إلام صيرك ربك، فقال وماذا عليك يا ابن الزانية، فقال: ما سلمنا من قولك ميتاً ولا من فعلك حياً)^(٤٠).

ويذكر أيضاً في مقت الحجاج للنبط وبطشه بهم أنه جعل لهم نقوشاً في أيديهم يعرفون بها، ويذكر الجاحظ أشعاراً حول رطانة النبط بالنسبة للعربي تمثل عند البعض صورة احتقارية سالبة لهم وظلم على هويتهم بيت شعر يقول:

"ترطن حولي كلما نر شارق ببغداد انباط القرى وعبيدها"^(٤١).

وعلى الرغم من أن جلّ الباحثين يعود بالفضل على ما كان للنبط الذين تتأقّفوا مع العرب - المسلمين من انجازات علمية وأدبية وعمرانية وحرف وصناعات وغيرها، وأنهم قدموا خدمات في خدمة الازدهار وبناء العمران، إلا أن الصورة الاحتقارية السالبة ظلت ماثلة، فهذا المستشرق الالمانى الكبير في موسوعته الكبيرة (جوزيف فان آس) يقول: (لم يظهر في أي مكان عدد من الانبياء كما ظهر في الكوفة)^(٤٢). والكوفة إقليم بابل و ماحولها هما من سكن النبط عبر الازمنة.

ويذكر أيضاً فعل عن الحجاج في نقش أيدي النبط ووسمهم بهذه السمة والاشعار حتى أصبحت مثلاً سائراً مع الايام فقيل:

"لو كان حباً له الحجاج ما سلمت صحيحة يده من نقش حجاج"

ويعقب الجاحظ هنا قائلاً: كان الحجاج يشم أيدي النبط علامة يعرفون بها^(٤٣). وفي شعر آخر يقال:

"خير غزاة تنتابهم تجوب العراق وتجبي النبطا"^(٤٤).

ونرى دائماً (أن الامم تتساجل فيما بينها عبر الصور الاكراهية التي تشكلها بواسطة السرود لغيرها، وقوامها ان هو الا نسيج متشابك من التصورات والمرويات الخاصة بها عن نفسها وعن الأمم الاخرى)^(٤٥). فكثير ما نرى انه تستعمل (الصورة النمطية باعتبارها أداة ذهنية)^(٤٦) وكذلك (الصورة النمطية أنها تمثل تبسيط وتشويه مبالغ فيه للواقع)^(٤٧). وللاقوام التي ترسم صورتهم وشخصياتهم وتحاول أن تجعل من (صورة الآخر تغدو تخطيطة فقيرة بسبب الاصرار المتواصل على إغفال واقعيته لصالح تمثيل تسطيحي وتبسيطي)^(٤٨). ونتيجة التواتر المطرد والمرويات المركزة حول قوم أو أمة من الامم مغلوطة أو عدوة (فإن لهذه الصورة، كما يظهر في تاريخ الافكار والمجتمعات تأثير كبير على اللاوعي الجمعي ومفعول عميق على الوجدان العام)

(٤٩). ولم يكن نبط العراق في منأى عن كل هذه الصورة التي تشكلت عنهم ومررت عبر مرويات ذكية ومناوئة للحط من شأنهم.

إن الناظر للصورة التي تكونت بمرور الزمن عن النبط أمست الصورة النمطية التبخيسية، ولا سيما عن عامة النبط المشتغلين في الزراعة والفلاحة وعن بسطاء الناس الذي الزهو العربي يستندر بها عليهم ويصفهم بصفات سالبة كما يقول أحد الباحثين: (إن هؤلاء الناس الذين يصورهم أبو الفتح (بديع الزمان الهمذاني) بهذه الاشكال الغبية التافهة هم حصيلة معرفة واعية، وإن تكن نزيهة كلية، استخلصها أثناء معاشرته لهم في القرى والرساتيق والمدن، فهو من طبقة المكدين - المزروعة في مسامات الناس - عبيد الله الذين "أخذوا العمر خليطاً فهم يسمون أعراباً ويصفون نبيطاً" (٥٠).

إن إحداث صورة سالبة تبخيسية ودوامها وتغذيتها في اللاشعور الجمعي من جماعة عن جماعة ما تعيش كأقلية معهم أو مغلوبة، دائماً ما تتخذ كذريعة للمحافظة على الامتيازات والمكاسب التي حصلت عليها الفئة الغالبة على المغلوبة، ويكون التمسك بها يأخذ شكل الدوام والحدث المستمر على جعلها لا تختفي من الوجدان العام والذاكرة الجمعية ومن ساحة الادوار الاجتماعية لا سيما اذا ما أدرك وشعر الغالب، أن المغلوب يتفوق عليه بإعمال يقوم بها بجهد ونشاط وابداع، فتصبح معه هذه الصورة السلاح الاسهل للنيل منه وثلبه، عندما لا يستطيع ان يقارعه في تلك الميادين التي يحسنها دونه. وهناك أمثلة في التراث أخذت هذه الآلية ذريعة عند ذوي النفوس والهمم الضعيفة في مقارعة خصومهم بدل من انتهاج مبدأ التنافس والندية المسالمة في العمل والانجاز.

فقد رويت المصادر التاريخية ما دار في مجلس المأمون (ت: ٢١٨ هـ) من شتم النبط، والحدث: إن محمد بن ابي العباس ناظر علي بن الهيثم (من النبط) بين يدي المأمون في التشيع ودار الكلام بينهما إلى أن قال محمد لعلي: "يا نبطي ما أنت والكلام؟" وكان المأمون متكئاً، فجلس وقال: (الشتّم عيبّ والبذاء لؤم، وقد أبجنا الكلام فمن قال إلى الحق حمدناه ومن جهل وقفناه، فاجعلا بينكما أصلاً ترجعان إليه) (٥١).

ولم يقف الحال بثلث النبط عند هذا الحدّ، بل استمر في الادبيات العربية - الاسلامية، فحين لا يجد الثالب غير القدح سلاحاً له، ويذكر المستشرق آدم متر ويرصد هذه الحالة فيقول: (وكانت العراق في القرن الرابع الهجري لا تزال بلاداً تربى البقر وكانت الانباط (النبط) المقيمون هناك يعرفون بأنهم "فرسان البقر" ولم يتغلب الجاموس في هذه البلاد إلاّ لما زادت البطائح والمستنقعات) (٥٢). وهنا الصورة السالبة المجانية واضحة ودالة في نعت النبط بفرسان البقر خلاف الغالبين فرسان الخيول.



وعلى الرغم من الصورة النمطية السالبة التي تتلبس النبت إلا أنه ترشح من مصادر التاريخ والتراث إشارات دالة عن إسهاماتهم في ميادين مختلفة وأدوار حضارية قام بها النبت (سكان العراق) في الترجمة والطبابة وصناعة العقاقير والتخطيط والحرف اليدوية والفلاحة والري ووضع الكتب من تأليف وترجمة وكذلك لا يغفل دورهم المؤثر الحاسم والواضح في دعم ثورات الاحتجاج بدءاً من أحداث العراق الأولى في الكوفة وما حولها حتى القرن الرابع الهجري ويتحدث مسكويه (ت: ٤٢١ هـ) عن ثورات حدثت من قبل النبت فيقول: (فلما استقر المظهر البريوني في أعمال الجامعة شاور الناس وفحص الرأي، فقرر الأمر على تدبير فاسد قد كان جربه من درج قبله مراراً فلم ينتفع به وهو إبقاء السدود على أفواه الأنهار لتتشف البطيحة التي يلجأ إليها عسكر النبت)^(٥٣). وهناك أمثلة كثيرة مماثلة لهذا الفعل من قبل الولاة الظالمين ضد ثورات كانت تحدث ضدهم من قبل أهل السواد في العراق في الكوفة والبصرة وواسط وما حولها وكان أغلب من يتمرد كان يطلق عليهم النبت الموالي، ولا ننسى ما يذكر عبد العزيز الدوري حول التمردات والاحتجاجات التي كانت تحدث بسبب ما عرف بالإقطاع العسكري ومصادر الأراضي والمواشي وغيرها^(٥٤).

ومن المعروف تاريخياً أن النبت وأقوام أخرى من سكان العراق القدماء في الضاحيات الصغيرة مثل الكوفة وما حولها كانوا يسكنونها النبت والسريان والعرب واليهود والفرس، وقد غلبت الحيرة مثلاً بالزراعة والرعي التي هي حرفة النبت^(٥٥). وإن نهر (أبا) الذي ذكره ياقوت الحموي هو لأحد ملوك النبت ويدعى (أبا بن الصامغان) وقد كانت الزراعة مزدهرة، وهناك بقايا ناعور لا يزال قائماً حتى الآن^(٥٦).

ولكن فيما بعد وبسبب الفوضى السياسية التي ألقت بظلالها السيئة على قطاع الزراعة في العراق (وكان القطاع الفلاحي الحيوي أشد القطاعات تضرراً من هذا الوضع بسبب مسالك الري التي تعتمد عليها الفلاحة بالعراق كلياً زيادة على انعدام الأمن وعسف الضرائب وهيجان الجند، فامتنع الناس عن عمارة الأرض واستحالت عليهم وغمرت مياه الشوق حقولاً شاسعة فتحولت إلى مستنقعات)^(٥٧).

وهذا دليل على أن العاملين في العمران الزراعي في العراق وتنظيم وعمران الشبكات والري هم في جعلهم من نبت العراق الذين توارثوا عمارة الأرض من أسلافهم، لكن مع الفتح العربي مورست ضدهم سياسات الظلم والاقصاء والاضطهاد، إذ أصبح قادة الجيوش الكبار المسلمين معظمهم ملاكين كبار للأراضي والقرى العراقية^(٥٨). ويؤكد الباحث ذاته (أطلق العرب على فلاحي العراق نبت العراق "وهم ينزلون سواد العراق .. ويسكنون العراق وإربابها" .. ويلاحظ في المصادر التاريخية أن تسميات عديدة أطلقت على سكان العراق الأصليين)^(٥٩).

واخيراً يقال الكثير عن تعلق النبط بالأرض والفلاحة والاهتمام بالزراعة والشجر والنخيل وكل المحاصيل بأنواعها كافة، وشغفهم بالعمران الزراعي، فقد وردت من الأمثال عن حب النبط للأرض لأنهم أهل السواد العامرة بالخضرة بالماء، ولم يثتم القلب والظلم الذي تعرضوا له بأنهم أهل محراث لا سيف وفرسان البقر ولا الخيل وأهل الحرف اليدوية من منتجات الزراعة لأنهم صناع حضارة مستقرة، غير مرتحلة أو راحلة أو بدوية، وتمسكهم بالأرض وعمارتها، وقد أكد القرآن الكريم والسنة النبوية في عدة مواضع بخصوص هذا الشأن بصورة إيجابية وكل ما قيل ضدهم هو من مخلفات عهد البداوة لا التحضر، وقد جاء في الأمثال العربية في حب النبط للأرض المثل التالي: (لا تبيع أرضك لأجل الشرير الرديء، فإنه يموت والأرض تبقى) (٦٠).

الخاتمة

يتضح أن العلاقة بين نبط العراق (سكان العراق) قبل الفتح العربي - الإسلامي، لم تكن كلها مثالية قائمة على المساواة والحياة الكريمة وحفظ الحقوق الإنسانية، بل شابها الكثير من التعسف والعنف والاضطهاد وسلب الحقوق والمهانة والتمييز والفوقية، برغم من أن نبط العراق تعاونوا في بناء نواة الحضارة العربية - الإسلامية في العراق وحواضرها الإسلامية الأولى مثل الكوفة والبصرة وواسط وبغداد... وساهموا في مختلف المجالات ودفع عجلة الازدهار والتطور إلى مديات معروفة.

ولكن بسبب الطمع عند بعض الولاة والأمراء والنظرة العرقية الفوقية، مورست ضدهم وتكونت عنهم صورة نمطية سلبية تبخسنيها تتال من آدميتهم وإرثهم الحضاري الكبير، وقد حفلت المصادر العربية - الإسلامية بالكثير من هذه الصور السلبية، ولكن تمسكهم بإرثهم جعلهم مصدراً مهماً يغذي مفاصل الحضارة وتمسكهم بأرضهم جعلهم أهل عمران زراعي وخبرتهم العرقية عنصراً لا يستهان بهم في اقتصاد الخلافة آنذاك.



الهوامش والمصادر:

- (١) جعيط، هشام، الكوفة - نشأة المدينة العربية الإسلامية، ط٣، دار الطليعة، بيروت، ٢٠٠٥، ص ١٩٢.
- (٢) سلامة، غسان، المجتمع والدولة في المشرق العربي، ط٢، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٩٩، ص ٣٠.
- (٣) جعيط، هشام، مرجع سابق، ص ١٩٢.
- (٤) سلامة، غسان، مرجع سابق، ص ٣٠.
- (٥) اليعقوبي، أحمد بن اسحاق البغدادي، (ت: ٢٧٩ هـ) تاريخ اليعقوبي، ط١، تحقيق: خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩١، ج١، ص ٧٢.
- (٦) المصدر نفسه، ج١، ص ٧٢.
- (٧) ينظر: هامش تاريخ اليعقوبي (المصدر نفسه)، ج١، ص ٧٢.
- (٨) المسعودي، أبي الحسن علي (ت: ٣٤٦ هـ) مروج الذهب ومعادن الجواهر، ط١، دار الكتاب العربي، بيروت، ٢٠٠٤، ج١، ص ٢١٥.
- (٩) المصدر نفسه، ج٢، ص ٥٦.
- (١٠) المصدر نفسه، ج٢، ص ٥٦.
- (١١) المصدر نفسه، ج٢، ص ٥٦.
- (١٢) مسكويه، ابو علي احمد بن محمد (ت: ٤٢١ هـ) تجارب الأمم وتعاقب الهم، تحقيق: ابو القاسم أمامي، ط١، دار سروش للطباعة، طهران، ٢٠٠١، ج٢، ص ١٠٩.
- (١٣) ابن العبري، غريغوريس ابي الفرج الملطي (ت: ١٢٨٦ هـ)، تاريخ مختصر الدول، تحقيق: الأب أنطوان صالحاني اليسوعي، ط١، دار الرائد اللبناني، بيروت، ١٩٨٣، ص ٨٠.
- (١٤) ينظر: قاموس لسان العرب لابن منظور تحت لفظ (نبت) وكذلك ابن سيده وغيره.
- (١٥) علي، جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام، دار الكتاب العربي، بيروت، ٢٠٠٨، ج١، ص ١٣٧.
- (١٦) الدوري، عبد العزيز، التكوين التاريخي للأمة العربية، ط٣، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٨٦، ص ٦٢.
- (١٧) الدوري، عبد العزيز، تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري، ط٤، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٩٩، ص ٣٧.
- (١٨) المرجع نفسه، ص ٣٧.
- (١٩) المرجع نفسه، ص ٣٧.
- (٢٠) الدوري، عبد العزيز، تاريخ العراق الاقتصادي، مرجع سابق، ص ٣٧.
- (٢١) الدوري، عبد العزيز، التكوين التاريخي للأمة العربية، مرجع سابق، ص ٦٢.
- (٢٢) ثويني، علي، الألسنة العراقية، ط١، دار ميزوبوتاميا، بغداد، ٢٠١٣، ص ١٤٤.
- (٢٣) هالم، هاينس، الغنوصية في الاسلام، ترجمة: رائد الباش، ط١، منشورات الجمل، كولونيا - ألمانيا، ٢٠٠٣، ص ١٨.
- (٢٤) الدوري، عبد العزيز، التكوين التاريخي، ص ٦٢.

- (٢٥) جعيط، هشام، مرجع سابق، ص ١٩٠-١٩١.
- (٢٦) الدوري، عبد العزيز، التكوين التأريخي، ص ١٨.
- (٢٧) بلات، شارل، الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، ط ١، ترجمة: ابراهيم الكيلاني، دار اليقظة العربية، دمشق، ١٩٦١، ص ٥١.
- (٢٨) ينظر: كتاب سليم مطر، الذات والجريحة.
- (٢٩) ينظر: كتاب عباس الزبيدي، التاريخ المستباح.
- (٣٠) ينظر: ثويني، علي، مرجع سابق.
- (٣١) الصابي، أبي الحسن بن المحسن (ت: ٤٤٨هـ)، الوزراء، تحقيق: عبد الستار أحمد فرج، ط ١، دار أحياء الكتب العربية، القاهرة، ١٩٥٨، ص ٧٨.
- (٣٢) الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير (ت: ٣١٠هـ)، تاريخ الرسل والملوك، ط ١، دار الأميرة، بيروت، ٢٠٠٥، ج ٢، ص ٤١٠.
- (٣٣) الكبيسي، حمدان، الخراج، احكامه ومقاديره، ط ١، شركة المطبوعات، بيروت، ٢٠٠٤، ص ١٤٢.
- (٣٤) العلي، صالح أحمد، التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة في القرن الأول الهجري، ط ٢، دار الطليعة، بيروت، ١٩٦٩، ص ٨٨.
- (٣٥) المرجع نفسه، ص ٨٨.
- (٣٦) السلامي، شافية حداد، نظرة العرب إلى الشعوب المغلوبة، ط ٢، دار الانتشار العربي، بيروت، ٢٠٠٩، ص ١٧١.
- (٣٧) المرجع نفسه، ص ١٧١.
- (٣٨) فلهاوزن، يوليوس، تاريخ الدولة العربية، ترجمة: محد ابو ريذة وحسين مؤنس، ط ٢، لجنة التأليف والترجمة، القاهرة، ١٩٦٨، ص ٢٤٤.
- (٣٩) الجهشاري، ابي عبد الله محمد بن عبدوس (ت: ٣٣١هـ) كتاب الوزراء والكتاب، تحقيق: مصطفى السقا، ابراهيم الايباري، ط ١، مطبعة البابي الحلبي وأولاده، القاهرة، ١٩٣٨، ص ٦١.
- (٤٠) الجاحظ، ابي عثمان بن عمر (ت: ٢٥٥هـ) كتاب الحيوان، تحقيق: ايمان الشيخ محمد، وعزيز الشيخ محمد، ط ١، دار الكتاب العربي، بيروت، ٢٠٠٨، ج ٥، ص ٤٥٨.
- (٤١) المصدر نفسه، ج ٥، ص ١٠٤٥.
- (٤٢) آس، جوزيف فان، علم الكلام والمجتمع في القرنين الثاني والثالث للهجرة، ترجمة: سالمة صالح، ط ١، منشورات الجمل، بيروت، ٢٠٠٨، ج ١، ص ٢١٥.
- (٤٣) الجاحظ، مصدر سابق، ج ٧، ص ١٤٥٨.
- (٤٤) المصدر نفسه، ج ٧، ص ١٢٧٦.
- (٤٥) إبراهيم، عبد الله، المركزية الاسلامية، ط ١، المركز الثقافي العربي، بيروت، ٢٠٠١، ص ٨.
- (٤٦) أفاية، محمد نور الدين، الغرب المتخيل، ط ١، المركز الثقافي العربي، بيروت، عام ٢٠٠٠، ص ٢١.
- (٤٧) المرجع نفسه، ص ٢٢-٢٣.
- (٤٨) المرجع نفسه، ص ١٥.
- (٤٩) المرجع نفسه، ص ٢٣.



- (٥٠) المرجع نفسه، ص ٢٣.
- (٥١) الراوي، عبد اللطيف، المجتمع العراقي في شعر القرن الرابع الهجري، مكتبة النهضة، بغداد، (د.ت)، ص ٢٠٤.
- (٥٢) مسكويه، مصدر سابق، ج ٤، ص ١٤٥-١٤٦.
- (٥٣) متز، آدم، الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري، ترجمة: محمد أبو ريده، ط ٤، مكتبة النهضة، بيروت، ١٩٦٧، ج ٢، ص ٣٤٦.
- (٥٤) مسكويه، مصدر سابق، ج ٦، ص ٤٥٩.
- (٥٥) الدوري، عبد العزيز، تاريخ العراق الاقتصادي، مرجع سابق، ص ١١٥.
- (٥٦) الطريحي، محمد سعيد، درايات الطريحي، ط ٣، أكاديمية الكوفة، هولندا، ٢٠١٠، ص ٢٥.
- (٥٧) المرجع نفسه، ص ١٨٧.
- (٥٨) التواتي، مصطفى، المثقفون والسلطة في الحضارة العربية، ط ٢، دار الفارابي، بيروت، ٢٠٠٤، ج ١، ص ٩٦-٩٧.
- (٥٩) الزيدي، عباس، التاريخ المستباح، ط ٢، مطبعة الرافد، النجف، ٢٠٠٨، ص ٣٧.
- (٦٠) المرجع نفسه، ص ٣٧-٣٨.

